من أسرار البلاغة فى سورة القيامة

إعداد

دكتورة / مرفت فرغلى محمود عبد الحافظ

مدرس البلاغة والنقد فى كلية البنات بأسيوط

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

من أسرار البلاغة فى سورة القيامة

يحسن بى قبل بيان الأسرار البلاغية لهذه السورة الكريمة أن أعرض أموراً مهمة يقتضيها البحث، وهى على النحو التالى:

التعريف بالسورة:

سورة القيامة مكية فى قول الجميع من غير خلاف[١] واختلف فى عدد آياتها ففى الكوفى أربعون آية وفى غيره تسع وثلاثون والخلاف فى لتعجل به[٢].

والراجح أن عدد آياتها أربعون آية[٣].

سبب نزولها:

يقول السيوطى إنه لما قال سبحانه فى آخر سورة المدثر ﴿كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ﴾ وبعد ذكر الجنة والنار، وكان عدم خوفهم إياها لإنكارهم البعث ذكر فى هذه السورة الدليل على البعث، ووصف يوم القيامة، وأهواله، وأحواله، ثم ذكر ما قبل ذلك من مبدأ الخلق فذكرت الأحوال فى هذه السورة على عكس ما هى فى الواقع[٤].

---

(١) روح المعانى للآلوسى، جـ ٢٩/١٣٥.

(٢) نفس المرجع جـ ٢٩/١٣٥، وفتح البيان فى مقاصد القرآن، ص١٥١ تأليف صديق خان، ط: مطبعة العاصمة.

(٣) تفسير الجلالين ٤/٢٢٧ - وحاشية الصاوى على الجلالين ٤/٢٢٧.

(٤) من أسرار ترتيب القرآن للسيوطى، ص١٥٤ - تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط:

صلتها بما قبلها:

وقوة الالتحام أو الصلة ظاهرة فيما بين هذه السورة الكريمة وبين سورة المدثر إذ الحديث فى سورة المدثر ذكر عدم خوفهم من يوم القيامة وذلك فى قوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ﴾ ثم جاءت هذه السورة الكريمة لتوضح لنا مشاهد يوم القيامة، وما يكون فى هذا اليوم من إخبار الإنسان بما قدم وأخر وما يترتب على ذلك من الثواب والعقاب، ولذلك كانت الصلة قوية بينهما.

أغراضها:

الغرض من هذه السورة الكريمة الرد على من يكذب بالآخرة ولا يخاف منها وكان ذلك بأمور كثيرة ذكرت فى هذه السورة وهى[1]:

١) الاستدلال بقدرة الله -سبحانه وتعالى- على جمع عظام الإنسان بعد تفريقها بالموت.

٢) الإخبار عن سوء حال الإنسان وإصراره على المعصية والفجور وذلك لاستبعاد الإنسان وقوع يوم القيامة كما ذكر الله ذلك فى قوله ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [2].

٣) إنكار الله -سبحانه وتعالى- على الإنسان التكذيب بيوم القيامة لظن الإنسان أن الله لا يحييه بعد موته، ولتكذيبه بيوم البعث وأنه يريد أن يكذب مما وضح وبان دليل وقوعه وثبوته

الثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، ط: دار الاعتصام.

(١) التباين فى أقسام القرآن ص٩٣-٩٥ بتصرف غير يسير للإمام ابن القيم الجوزى، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٢) سورة ق، آية ٣.

فهو مريد للتكذيب به، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن تصريح الإنسان بالتكذيب فى قوله: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾.

٤) إخبار الله سبحانه وتعالى لنا عن حال الإنسان إذا شاهد اليوم الذى كذب به وذلك فى قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾.

٥) الاستدلال بقدرته -سبحانه وتعالى- على جمع الشمس والقمر ولم يجتمعا من قبل ذلك، فيه دليل على جمع عظام الإنسان بعد ما فرقها الموت ومزقها، وعلى جمعه سبحانه وتعالى للإنسان جميع عمله الذى قدمه وأخره من خير أو شر وكذلك جمعه المؤمنين فى دار الكرام فيكرم وجوههم بالنظر إليه، وجمعه المكذبين فى دار الهوان.

وكذلك قدرته على جمع خلق الإنسان من نطفة من منى يُمنى ثم جعله علقه مجتمعة الأجزاء بعد ما كانت نطفة متفرقة فى جميع بدن الإنسان وكذلك قدرته على الجمع بين الإنسان وملوك الموت.

٦) ثم أفضى الاستدلال بقدرته على ما سبق بيانه إلى الاستنتاج بأن الله سبحانه وتعالى قادر على إحياء الموتى وذلك فى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾.

وبعد هذا البيان الموجز عن سورة القيامة من التعريف بالسورة وبيان عدد آياتها وسبب نزولها، وصلتها بما قبلها، وأغراضها أشرع -بإذن الله- فى بيان المراد من لفظ القيامة من خلال التحليل اللغوى لهذه الكلمة والمواضع التى ذكر فيها هذا اللفظ فى القرآن الكريم.

القيامة فى اللغة:

القيامة (فى اللغة) عبارة عن قيام الساعة المذكور فى قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ سورة الروم آيات (١٢ – ١٤ – ٥٥) و﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة المطففين آية (٦) – ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ الكهف آية (٣٦).

والقيامة أصلها ما يكون من الإنسان من القيام دفعة واحدة، وأدخل منها الهاء تنبيهاً على وقوعها دفعة[١].

وقيل القيامة: واحدة القيم، وأصله الواو لأنه يقوم مقام الشيء والقِيمَةُ ثمن الشيء بالتقويم تقول: تقاوموه فيما بينهم،وإذا انقاد الشيء واستمرت طريقته فقد استقام لوجهه.

ويقال: كم قامت ناقتك؟ أى كم بلغت؟ وقد قامت الأَمةَ مائة دينار، أى بلغ قيمتها مائة دينار وكم قامت أمتُك؟ أى بلغت[٢].

إذا المراد من القيامة قيام الناس دفعة واحدةٍ وكذلك تقويم أى تقدير أعمالهم من خير وشر.

وقد ورد لفظ القيامة فى القرآن الكريم فى سبعين موضعاً من أول سورة البقرة إلى سورة القيامة[٣].وبعد بيان المراد من لفظ القيامة أشرع -بإذن الله- فى بيان الأسرار البلاغية

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى، ص٤١٧، تحقيق محمد سيد كيلانى، طبع الحلبى.

(٢) لسان العرب لابن منظور ٣٧٨٣/٥ – دار المعارف.

(٣) أنظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٥٨١-٥٨٢ – تأليف محمد فؤاد عبد الباقى.

الموجودة فى هذه السورة الكريمة، مع بيان بعض الكلمات التى تحتاج إلى توضيح.

قال تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾.

لقد بدأت هذه السورة الكريمة بالقسم بيوم القيامة وكون القسم بيوم القيامة فيه براعة استهلال[١] لأن الغرض من هذه السورة الكريمة وصف يوم القيامة ووصف ما فى هذا اليوم من أهوال البعث والجزاء. "ويعد القسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة من بديع القسم وذلك للتناسب بين هذين الأمرين من حيث إن المراد بالقيامة يوم البعث والمراد بالنفوس النفوس المجزية فيه على أعمالها من خير أو شر"[٢].

ومن الملحوظ أن هذه السورة الكريمة قد بدأت (بلا) النافية وهذا أمر يثير فى النفس تساؤلاً وهو لماذا بدأت هذه السورة بلا النافية -وكان من الممكن فى غير القرآن- أقسم بيوم القيامة وأقسم بالنفس اللوامة وما السر فى ذلك؟

---

(١) المراد ببراعة الاستهلال: هو أن يجعل المتكلم مبدأ كلامه حسن الرصف،عذب اللفظ صحيح المعنى مع اشتماله على الإشارة إلى المقصود من تهنئة أو مدح أو هجاء أو عتب انظر الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، ص١٣٩ مكتبة المتنبى وعلم البديع ص١٧٤ تأليف د. عبد الفتاح لاشين.

(٢) البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ١ / ١٨٠ وما بعدها - ط: دار التراث، الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ٣ / ٣١٦ - المكتبة العصرية - بيروت.

وللرد على هذا التساؤل يقول الإمام الزمخشرى:

إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض فى كلام العرب وأشعارهم..

قال أمرؤ القيس:

لا وأبيك ابنة العامرى لا يدعى القوم أنى أفر

وقال غوية بن سلمى:

ألا نادت أمامه باحتمال لتحزننى فلا بك ما أبالى

وقالوا: وفائدتها توكيد القسم وقيل: إنها صلة مثلها فى: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾ (١).

وفى قوله: "فى بئر لاحور سرى وما شعر" واعترضوا عليه بأنها إنما تزاد فى وسط الكلام لا فى أوله.

وأجابوا بأن القرآن فى حكم السورة الواحدة متصل بعض ببعض.

والاعتراض صحيح لأنها لم تقع مزيدة إلا فى وسط الكلام، ولكن الجواب غير سديد ألا ترى إلى امرؤ القيس كيف ناداها فى مستهل قصيدته والوجه أن يقال هى للنفى والمعنى فى ذلك أنه لا يقسم بالشىء إلا إعظاماً له يدلك عليه قوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾(٢) فكأنه بإدخاله حرف النفى يقول: "إن إعظامى له بإقسامى به كلا إعظام: يعنى أنه يستهل فوق ذلك وقيل أن "لا" نفى لكلام ورد له قبل القسم كأنهم أنكروا البعث فقيل: لا: أى ليس الأمر على ما ذكرتم(٣) أقسم بيوم القيامة.

---

(١) سورة الحديد، آية ٢٩.

(٢) سورة الواقعة آية، ٧٥-٧٦.

(٣) الكشاف للزمخشرى، جـ ١٨٩/٤.

وهذا هو الرأى الراجح وذلك لأن الغرض من هذه السورة الكريمة الرد على من يكذب بالآخرة أى البعث ولذلك بدأت هذه السورة بـ"لا" النافية للمبالغة فى تعظيم المقسم به وفى ذلك أيضاً كناية عن تأكيد القسم(١).

وعلى هذا يكون "لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة" أقسم بيوم القيامة وأقسم بالنفس اللوامة.

وجواب القسم هنا محذوف ودل عليه قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ وتقديره لتبعثن ويعد هذا من الإيجاز بالحذف(٢) لدلالة فحوى الكلام على الجواب.

وعطف قوله تعالى: ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ على قوله: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ﴾ فيه تأكيد للجملة المعطوف عليها.

والمراد بالنفس اللوامة المتقية التى تلوم النفوس فيه أى فى يوم القيامة على تقصيرهن فى التقوى، أو التى لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت فى الإحسان(٣).

والصوفية قسموا النفس سبعة أقسام:

الأول: الإمارة وهى نفوس الكفار.

الثانى: اللوامة وهى التى تلوم صاحبها ولو كان مجتهداً فى الطاعة.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٣٣٨.

(٢) المارد بالإيجاز: دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه ومن الإيجاز: الإيجاز بالحذف وهو ما يحذف منه المفرد والجملة للدلالة فحوى الكلام على المحذوف المثل السائر ٢/٢٥٩-٢٦٤.

(٣) الكشاف جـ ٤/١٩٠.

الثالث: الملهمة وهى التى ألهمت فجورها وتقواها.

الرابع: المطمئنة.

الخامس: الراضية وهى التى رضيت عن الله فى جميع حالاتها.

السادس: المرضية وهى التى جوزيت بالرضى عن الله لأن من رضى له الرضا.

السابع: الكاملة وهى غاية المراتب وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومأخذ الجميع من القرآن.

فالأمَّارة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (١) واللوامة من هذه الآية والملهمة من قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٢) والمطمئنة، وما بعدها من قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ(٣)﴾ (٤).

وأل فى النفس للجنس، لأن المراد بها نفوس المؤمنين. وصيغة المبالغة، فى قوله: ﴿اللَّوَّامَةِ﴾ تدل على أن النفوس تكثر من لوم أصحابها على التقصير فى التقوى والطاعة.

وفى قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ الاستفهام فى قوله: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ خرج عن معناه الحقيقى إلى معنى مجازى لأن الغرض من الاستفهام هنا توبيخ وتقريع الكافرين على ظنهم بأن الله سبحانه وتعالى لا يقدر على جمع عظامهم بعد تفرقها وتمزقها بالموت.

---

(١) سورة يوسف، الآية ٥٣.

(٢) سورة الشمس، الآية ٨.

(٣) سورة الفجر، الآية ٢٧.

(٤) حاشية الصاوى على الجلالين ٤/٢٢٧/٢٢٨.

والمراد بالجمع في قوله: ﴿نَّجْمَعَ﴾ الضم أى ضم جميع أجزاء المخلوقات كما كانت من قبل فقوله ﴿نَّجْمَعَ﴾ هنا مستعار للخلق الذى هو على صورة الجسم الذى تفرق وتمزق بالموت ومناسبة استعارته مشاكلة أقوال المشركين التى أريد إبطالها لتجنب الدخول معهم فى تصوير كيفية البعث[١].

والعظام المراد بها الجسد كله، وذلك لأن العظام تقتضى اعادة بقية الجسم وفى كلمة العظام مجاز مرسل علاقته الجزئية وذلك لأنه عبر بالجزء وهو العظام وأراد الكل[٢] أى الجسد كله.

وخصت العظام بالذكر لحكاية أقوالهم فى أكثر من موضع فى القرآن .. قال تعالى: ﴿ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [٣].

و﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [٤] وقوله: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً﴾ [٥] وفى قوله تعالى: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾.

"بلى" حرف إبطال للنفى الذى يدل عليه ﴿أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ والمراد نجمعها بعد تفرقتها لقدرتنا على ذلك.

---

(١) التحرير والتنوير، جـ٢٩/ ٣٤٠ بتصرف.

(٢) المجاز المرسل: هو الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له لعلاقة بين المعنيين غير المشابهة .. والمراد بالجزئية: هو أن يعبر عن الكل باسم جزئه، أى يطلق اسم الجزء ويراد به الكل. بغية الإيضاح ٣/ ٩١ ونظرات فى البيان ص٣٥ - ط: السعادة ومن بلاغة النظم العربى ٣/ ١٤٠.

(٣) سورة يس، آية ٧٨.

(٤) سورة الإسراء، آية ٤٩.

(٥) سورة النازعات، آية ١١.

والتسوية تقويم الشيء واتقان الخلق قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (١) وقال سبحانه وتعالى فى هذه السورة ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾.

والمراد بالبنان: الأصابع وسميت بذلك لأن بها صلاح الأحوال التى يمكن أن يبن بها يريد أن يقيم بها ولذلك خص فى قوله تعالى: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (٢).

وفى قوله تعالى: ﴿نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ مجاز مرسل علاقته الجزئية وذلك لأنه تسوية أطراف الجسد تقتضى تسوية ما قبله فعبر الله -سبحانه وتعالى- عن تسوية جسد الإنسان وهو الكل بالبنان وهو الجزء.

قال تعالى:

﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ (٧) وَخَسَفَ القَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُّ (١٠) كَلَّا لاَ وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ (١٢)﴾ بعد ما ذكر الله -سبحانه وتعالى- لنا إنكار المشركين البعث فى أول هذه السورة ذكر لنا حالاً آخر من أحوالهم وهو تصميمهم على الكفر واستبعادهم هذا اليوم وذلك فى قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ ولم تعطف هذه الآيات على الآيات المتقدمة عليها لقوة الاتصال بين المعنى الأول والمعنى الثانى لأن المعنى الأول كما سبق ووضحنا حدثنا الله -سبحانه وتعالى- فيه عن إنكار المشركين البعث، والمعنى الثانى يتحدث

(١) سورة الشمس، آية ٧.

(٢) مفردات غريب القرآن ص٦٢.

عن تصميم الكافرين على الكفر، واستبعادهم البعث ما سيحدث فى هذا اليوم ولذلك فصل بين هذه الآيات وبين الآيات المتقدمة عليها ويسمى هذا النوع من الفصل[١] بالاستئناف الابتدائى.

وأعيد لفظ الإنسان إظهاراً فى مقام الإضمار لأن المقام لتقريع الإنسان والتعجب من كفره وعناده.

والمراد بالفجور فعل السوء الشديد والمراد به هنا تكذيب الإنسان.

والأمام ضد الخلف وهو ظرف مكان استعير هنا للزمان المستقبل لإفادة الاستمرار[٢].

والمراد ليداوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان[٣].

وجملة قوله: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ﴾ جملة مستأنفة للبيان جىء بها تعليلاً لإرادة الدوام على الفجور إذ هو فى معنى لأنه أنكر البعث واستهزئ به[٤] لذلك فهو يسئل عنه لاعتقاده استحالة وقوعه.

وأسلوب الاستفهام هنا خرج عن معناه الحقيقى إلى معنى مجازى وهو الاستهزاء والتكذيب، ولأنهم لم يكونوا جادين فى سؤالهم عن يوم القيامة عدل على أن يجابوا بتعيين وقت ليوم القيامة إلى أن يهددوا وينذروا بما يقع من أهوال فى هذا اليوم ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ وَخَسَفَ القَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾.

---

(١) المراد بالفصل: ترك العطف بين الجمل الايضاح، ص٨٩.
(٢) روح المعانى ١٣٨/٢٩.
(٣) الكشاف ١٩٠/٤.
(٤) روح المعانى ١٣٨/٢٩ بتصرف.

وفى هذه الآيات تهديد جاء رداً على طلب لتعيين وقت ليوم القيامة وقد جاء هذا التهديد مخالفاً لما اعتقده الكفار من عدم وجود يوم للبعث ولما كان الجواب مخالفاً لما اعتقدوه أتى هذا الكلام على صورة الأسلوب الحكيم(١).

وكذلك تضمن هذا الجواب التعريض(٢) بالتوبيخ لهم على ما فرطوا فى التقوى والطاعة لله -عز وجل- واشتغالهم بالسؤال عن وقتها.

و﴿بَرِقَ﴾ يقال فى العين إذا اضطربت وجالت من خوف قال -عز وجل- ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ (٣) والمراد ببرق البصر هنا تحير فزعاً من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره(٤).

وإسناد البرق إلى البصر إسناد حقيقى لأن الدهشة والخوف لا يكونان إلا من البصر وعلى هذا يكون التعبير بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ فيه كناية عن رعب وفزع الكافرين فى هذا اليوم.

ولقد صدرت هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ بإذا الظرفية والمتضمنة معنى الشرط المحتاجة إلى جواب شرط تطلبه، لحث الفكر إلى تلهف الجواب الذى يأتى بعد هذه الأفعال ليتمكن منهم فضل تمكن ثم إن التعبير بإذا خاصة فيه دلالة على تيقن هذا الحدث وإنه لا مفر منه.

---

(١) الأسلوب الحكيم: هو تلقى المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد ... الايضاح ص٤٦.

(٢) التعريض: المراد به أن يذكر شيئاً يدل به على شىء لم يذكره. الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، ص١٣٣ لابن القيم الجوزية، ط: المتنبى، القاهرة.

(٣) مفردات غريب القرآن ص٤٣.

(٤) روح المعانى ١٣٩/٢٩.

عن تصميم الكافرين على الكفر، واستبعادهم البعث ما سيحدث فى هذا اليوم ولذلك فصل بين هذه الآيات وبين الآيات المتقدمة عليها ويسمى هذا النوع من الفصل[١] بالاستئناف الابتدائى.

وأعيد لفظ الإنسان إظهاراً فى مقام الإضمار لأن المقام لتقريع الإنسان والتعجب من كفره وعناده.

والمراد بالفجور فعل السوء الشديد والمراد به هنا تكذيب الإنسان.

والأمام ضد الخلف وهو ظرف مكان استعير هنا للزمان المستقبل لإفادة الاستمرار[٢].

والمراد ليداوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان[٣].

وجملة قوله: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ﴾ جملة مستأنفة للبيان جىء بها تعليلاً لإرادة الدوام على الفجور إذ هو فى معنى لأنه أنكر البعث واستهزئ به[٤] لذلك فهو يسئل عنه لاعتقاده استحالة وقوعه.

وأسلوب الاستفهام هنا خرج عن معناه الحقيقى إلى معنى مجازى وهو الاستهزاء والتكذيب، ولأنهم لم يكونوا جادين فى سؤالهم عن يوم القيامة عدل على أن يجابوا بتعيين وقت ليوم القيامة إلى أن يهددوا وينذروا بما يقع من أهوال فى هذا اليوم ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ وَخَسَفَ القَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾.

---

(١) المراد بالفصل: ترك العطف بين الجمل الايضاح، ص٨٩.
(٢) روح المعانى ١٣٨/٢٩.
(٣) الكشاف ١٩٠/٤.
(٤) روح المعانى ١٣٨/٢٩ بتصرف.

والمراد بالخسف فى قوله: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ ذهاب ضوئه[١] ويؤيد ذلك قول الراغب:الخسوف للقمر والكسوف للشمس، "وقيل الكسوف فيهما إذا زال بعض ضوئهما والخسوف إذا ذهب كله..."[٢].

وكذلك الجمع بين الشمس والقمر المراد بهما ذهاب ضوئهما حيث يطلعهما الله تعالى من المغرب والى ذلك ذهب الصاوى فى قوله: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ طلعا من المغرب وأذهب ضوؤهما وذلك يوم القيامة[٣].

وبالتأمل فى قوله تعالى:

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾.

نجد أن فى هذه الآيات ما يسمى بـ"مراعاة النظير"[٤] وذلك لأن هذه الآيات قد جمعت بين البرق والقمر والشمس وكل منهما من واد واحد وهو السماء.

ولقد ورد جواب الشرط فى قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ ومن الملحوظ أنه قد تقدم الظرف فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ على عامله وهو قوله: ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ﴾ للاهتمام بالظرف لأنه المقصود للرد على سؤال الكافرين من

---

(١) الكشاف ١٩١/٤.

(٢) مفردات الراغب ص١٤٨.

(٣) حاشية الصاوى ٢٢٨/٤.

(٤) مراعاة النظير يسمى التناسب والتوفيق والائتلاف ويراد به أن يجمع المتكلم بين أمرين متناسبين أو أمور متناسبة غير متضادة بل متوافقة من بلاغة النظم العربى جـ٣٣/٤.

استبعادهم ليوم البعث فى قوله: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ﴾ والمراد بـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة.

﴿أَيْنَ المَفَرُّ﴾ الاستفهام وكذلك الاستفهام هنا قد يراد به النفى والاستبعاد أى لا مفر اليوم من عقاب الله مستعمل فى معناه الحقيقى لتحير الإنسان ودهشته وطلب فراره من هول ما شاهد فى هذا اليوم. ومن الممكن أن يكون الاستفهام هنا قد خرج عن معناه الحقيقى إلى معنى مجازى وهو التمنى والسر البلاغى وراء التمنى بالاستفهام هو إبراز المستحيل أو البعيد الحصول فى صورة الممكن وهذا ينبىء بكمال العناية به وشدة الرغبة فى وقوعه.

ثم جاء جواب هذا السؤال بقوله: ﴿كَلاَّ لاَ وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣)﴾.

وقد فصل بين السؤال فى قوله: ﴿أَيْنَ المَفَرُّ﴾؟ والجواب فى قوله: كلا لا وزر لقوة الصلة بين السؤال والجواب وهذا ما يسمى بشبه كمال الاتصال[1] عند علماء البلاغة.

و(كلا) ردع وإبطال لما تضمنه قول الكافر أين المفر من الطمع فى أن يجد سبيلاً للنجاة و(الوزر) الملجأ أى لا ملجأ له.

وتقديم الجار والمجرور فى قوله: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ﴾ يفد القصر[2] أى إلى ربك الملجأ لا إلى غيره.

---

(١) شبه كمال الاتصال المراد به أن تكون الجملة الثانية قوية الاتصال بالجملة الأولى لكونها جواباً عن سؤال اقتضته الأولى فتنزل منزلته لتفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال الإيضاح ص٩١.

(٢) القصر فى اللغة: الحبس وفى الاصطلاح: تخصيص شىء بشىء بطريق

وفى هذا اليوم ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾.

وقد وردت جملة يُنَبَّأُ الإِنسَانُ مفصولة عما قبلها لأنها جاءت رداً على سؤال أثاره قوله: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ﴾ وهو ماذا فى المصير؟

فجاء الجواب: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾.

وتنبئة الإنسان بما قدم وأخر فيه كناية عن مجازاة الإنسان على ما فعل إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وبين قوله: (قدم وأخر) طباق[1] لأن التقديم ضد التأخير ثم انتقل من إخبار الإنسان بما قدم وأخر إلى الإخبار بأن الإنسان يعلم ما فعله والدليل على ذلك قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سورة النور آية ٢٤، وذلك لأن لكل منا كتاباً يقرأه فإذا قرأه قال: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ سورة الحاقة آية ٢٥ وقال تعالى: ﴿مَا لِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ سورة الكهف آية ٤٩، وقوله: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ سورة الإسراء آية ١٤.

وذلك فى قوله تعالى: بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥).

المراد بقوله: ﴿بَصِيرَةٌ﴾ أى شاهدة عليه جوارحه تنطق بعمله والى هذا المعنى أشار الراغب فى قوله: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ

مخصوص. بغية الإيضاح ٣/٢ مكتبة ومطبعة صبيح.

(١) الطباق المراد به: أن يجمع فى كلام واحد بين معنى وضده. من بلاغة النظم العربى جـ٤ /١٨.

بَصِيرَةٌ﴾ أى تَبْصُرُهُ فتشهَدُ له وعليه من جوارحه بَصَيرَةُ فتشهَدُ لَهُ وعليه يوم القيام كما قال: ﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ﴾(١).

ووصفت الشهادة بالإبصار على سبيل المجاز المرسل وعلاقته المسببة لأن البصيرة هى المتسببة عن إخبار الإنسان بما قدم وأخر. والمعنى: "إن الإنسان ينبأ بأعماله وإن لم ينبأ ففيه ما يجزئ عن الإنباء لأنه شاهد عليها بما عملت لأن جوارحه تنطق بذلك .. "(٢)

﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ المعاذير اسم جمع معذرة وليس جمعاً لأن معذرة حقه أن يجمع على معاذر.

والمراد: ولو جاء بكل معذرة يمكن أن يعتذر بها عما قدم من المعاصى لا تقبل منه. وعن الضحاك: المعاذير الستور بلغة اليمن والمراد: ولو أرخى ستوره وعلى هذا -أي عن معنى المعاذير بلغة اليمن- يكون الإلقاء مستعملاً فى معناه الحقيقى أى الإرخاء(٣).

وتكون الاستعارة فى المعاذير حيث شبه المجىء بالعذر بالقاء الدلو فى البئر للاستسقاء به والاستعارة هنا تبعية.

قال تعالى:

﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾.

هذه الآيات معترضة جىء بها لتأكيد التهويل وتفظيع يوم القيامة مع اقتضاء السياق له فكأنه لما ذكر سبحانه ما يتعلق بذلك

---

(١) مفردات القرآن ص٤٩.

(٢) الكشاف ١٩١/٤.

(٣) روح المعانى ١٤١/٢٩.

اليوم الذى افتتحت السورة بإعظامه ما يتعلق قوى داعى السؤال عن توقيته وأنه متى يكون وفى أى وقت يبين لاسيما وقد استشعر أن السؤال عن ذلك إذا لم يكن استهزاء مما لا بأس به فقيل لا تحرك به أى بطلب توقيته لسانك وهو نهى عن السؤال على أتم وجه كما يقال لا تفتح فمك فى أمر فلان لتعجل به لتحصل علمه على عجلة فإن علينا جمع ما يكون فيه من الجمع وقرآنه ما يتضمن شرح أحواله وأهواله من القرآن فإذا قرأناه قرأنا ما يتعلق به فاتبع قرآنه بالعمل بما يقتضيه من الاستعداد له ثم إن علينا بيانه إظهاره وقوعاً بالنفخ فى الصور وهى الطامة الكبرى وحاصله:

لا تسأل عن توقيت ذلك اليوم العظيم مستعجلاً معرفة ذلك فإن الواجب علينا حكمه حشر الجميع فيه وإنزال قرآن يتضمن بيان أحواله ليستعد له وإظهاره بالوقوع الذى هو الداهية العظمى وما عدا ذلك من تعيين وقته فلا يجب علينا حكمه بل هو منافٍ للحكمة فإذا سألت فقد سالت ما ينافيها فلا تجاب[1].

والمراد بالقراءة فى قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أى شرحناه أحوال وأهوال هذا اليوم واسندت القراءة التى بمعنى الشرح هنا إلى ضمير الجلالة على سبيل المجاز العقلى[2] للمبالغة فى إيجاب التأتى بمعنى أن هذا الأمر آت لا محالة فاستعدوا له.

ثم يستمر السياق الكريم فى تقرير عقيدة البعث والجزاء والتى عليها ولعى الإيمان بالله مدار الإصلاح والتهذيب فقال

---

(١) روح المعانى ٢٩/١٤٤ بتصرف يسير.

(٢) المجاز العقلى: إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأويل. الإيضاح ص١٦.

تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ (٢١)﴾.

وفى هذا استدلال آخر على استبعادهم ليوم القيامة.

وفى إيثار التعبير بأسلوب المقابلة[1] فى قوله: ﴿تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ تأكيد للمعنى وهو حبهم للدنيا وبعدهم عن الآخرة.

وبعد ما ردع الله -سبحانه وتعالى- الإنسان عن حب العاجلة وسوء عاقبة العاجلة قال تعالى:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾.

ثم بعد أن ذكر الله -سبحانه وتعالى- لنا ما يحدث فى يوم القيامة من البعث وأحواله وأهواله وما سيحدث من تنبئة الإنسان بما قدم وأخر ذكر الله -سبحانه وتعالى- لنا فى هذه الآيات ما ترتب على هذه التنبئة وهو أنه ستوجد فى هذا اليوم وجوه متهللة من عظيم المسرة تشاهد عليها نضرة النعيم وهى وجوه المؤمنين المخلصين ووجوه شديدة العبوس تظن أن يفعل بها داهية عظيمة تقصم فقار الظهر.

وقد حصل من هذا حسن تخلص[2] إلى إجمال حال الناس يوم القيامة بين أهل سعادة وأهل شقاوة.

---

(١) أسلوب المقابلة: هو أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب ص١٥٩ الإيضاح.

(٢) حسن التخلص المراد به الخروج مما شبب (ابتدئ) به الكلام إلى المقصود مع وجود المناسبة بين ما شبب به الكلام وبين المقصود جـ٤/٢٢٣ من بلاغة النظم العربى.

وبين "ناضرة" و"ناظرة" جناس مضارع[1] لاختلاف الكلمتين فى نوع الحروف. والوجه فى قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ عبارة عن جسد الإنسان كله ولكنه عبر بالجزء عن الكل على سبيل المجاز المرسل والعلاقة هنا الجزئية. وكذلك الوجه فى قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ عبارة عن جسد الإنسان كله.

وخصت الوجوه فى الحالتين بالذكر دون غيرها من أعضاء جسد الإنسان لأن انطباعات النفس تظهر على الوجه فهى حسنة مضيئة مشرقة لأن أرواح أصحابها كانت فى الدنيا مشرقة بنور الإيمان وصالح الأعمال، ووجوه كالحة عابسة لأن أرواح أصحابها كانت فى الدنيا تعيش على ظلمة الكفر.

وتقديم الجار والمجرور على العامل فى قوله: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ الغرض منه الاهتمام بهذا العطاء العجيب وهو نظر أهل السعادة والإيمان إلى ربهم -سبحانه وتعالى- والتمتع به.

ولا يدل على الاختصاص كما هو المشهور عند علماء البلاغة.

وبالتأمل فى هذه الآيات الكريمة وهى قوله تعالى:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾.

نرى أنه قد وصل بين قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ وبين قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ وذلك لاتفاق الجملتين فى الخبرية

---

(١) المراد بالجناس: التشابه فى اللفظين مع الاختلاف فى المعنى والمراد بالجناس المضارع ما اختلف فيه فى نوع الحروف بغية الإيضاح ٧٧/٤ والتحبير فى علم التفسير ص٢٩٢.

من حيث اللفظ والمعنى. ولكنه فصل بين الآية الأولى وهى قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ وبين الآية التالية لها وهى قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ لقوة الاتصال بين هاتين الآيتين لأن الآية الأولى أثارت سؤالاً وهو لماذا تكون هذه الوجوه ناضرة متهللة؟

فكان الجواب: لأنها تتمتع برؤية الله -سبحانه وتعالى-.

وكذلك فصل بين قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ وقوله: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ لقوة الاتصال بينهما أيضاً لأن جملة ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ مستأنفة لبيان سبب بسور هذه الوجوه.

والمراد بالوجوه الباسرة الشديدة العبوس لتيقنها أن العذاب نازل بها وهى وجوه الكفرة.

وقد أشار إلى ذلك المعنى صاحب لسان العرب فى قوله:

قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ أى مُقطبة قد أيقنت أن العذاب نازل بها وبسر الرجل وجهه بسوراً أى كلح"(١).

والراغب فى قوله: "فيه إشارة إلى حالها قبل الانتهاء بهم إلى النار فخص لفظ البسر تنبيهاً أن ذلك مع ما ينالهم من بعد يجرى مجرى التكاليف ومجرى ما يفعل قبل وقته ويدل على ذلك قوله عز وجل: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾(٢).

والمراد بالفاقرة: الداهية تقصم - تكسر - فقار الظهر(٣).

---

(١) لسان العرب ٢٧٩/١ ط. دار المعارف.

(٢) مفردات الراغب ص٤٦.

(٣) الكشاف ١٩٢/٤.

ومن الأدلة التى ساقها الله -سبحانه وتعالى- على أن يوم القيام آت لا محالة قوله تعالى:

﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ (٣٠)﴾.

(كلا) ردع ثان على قول الإنسان "أيان يوم القيامة" مؤكد للردع الذى قبله فى قوله: "كلا بل تحبون العاجلة، وتذرون الآخرة" ومعناه الزجر عن استحالة البعث فإنه واقع غير بعيد فكل أحد يشاهده حين الاحتضار للموت كما يؤذن به قوله: "إلى ربك يومئذ المساق" حيث اتبع وصف علامات القيامة المباشرة لحلوله بوصف علامات حلول التهيؤ الأول للقاء من مفارقة الحياة الأولى[1] والضمير فى (بلغت) للنفس وإن لم يجر لها ذكر لأن الكلام الذى وقعت فيه يدل عليها.

وتقول العرب: أرسلت يريدون جاء المطر ولا تكاد تسمعهم يذكرون السماء. والتراق جمع ترقوة وهى العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال[2] وعلى هذا يكون التعبير بقوله تعالى: "كلا إذا بلغت التراق" فيه كناية عن الإشراف على الموت.

والمعنى: "ارتدعوا عن إنكاركم البعث وتنبهوا لما بين أيديكم من الموت الذى ينقطع عنده ما بينكم وبين العجلة من العلاقة"[3]. والاستفهام فى قوله تعالى: "وقيل من راق" الغرض منه الاستبعاد

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٣٥٦ بتصرف.

(٢) الكشاف ٤/١٩٢/١٩٣.

(٣) روح المعانى ٢٩/١٤٦.

والانكار لأن المشرف على الموت يكون قد بلغ مبلغاً بحيث لا تصلح معه الرقية سواء كان المراد بالرقية الطبيب أو المراد بالرقية الدعاء المعد لذلك.

والمراد بالظن فى قوله: "وظن أنه الفراق" اليقين وقد أجمع المفسرون على أن المراد بالظن ههنا اليقين وسمى اليقين بالظن لأن الإنسان مادامت روحه متعلقة ببدنه يطمع فى الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة ولا ينقطع رجاؤه عنها فلا يحصل له يقين الموت بل الظن الغالب مع رجاء الحياة أو العلة سماه بالظن على سبيل التهكم(١).

وقد استعيرت الساق فى قوله: "والتفت الساق بالساق" لشدة كرب الدنيا فى آخره يوم منها، وشدة كرب الآخرة فى أول يوم منها لأنه بين الحالين قد اختلطا به كما نقول شمرت الحرب عن ساق استعارة لشدتها(٢).

وتقديم الجار والمجرور فى قوله تعالى: "إلى ربك يومئذ المساق" على متعلقه وهو المساق يدل على الاختصاص والمراد: المرجع إليه -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه.

كما أن التقديم هنا يفيد الاهتمام بتوصيل المعنى للكافر وهو أن المرجع فى ذلك اليوم سيكون لله وحده دون سواه لأن هذا المعنى هو مناط الإنكار منهم لأنهم ينكرون البعث.

وبين قوله تعالى: "الساق، والمساق" جناس ناقص لاختلاف

---

(١) روح المعانى ١٤٦/٢٩.

(٢) البحر المحيط ٣٩٠/٨ الناشر مكتبة مطابع العصر الحديث - الرياض.

هاتين الكلمتين فى عدد الحروف، والقيمة البلاغية للجناس هنا تكمن فى أن الله -سبحانه وتعالى- قد جمع بين حالتين الإنسان فى الدنيا والآخرة بكلمتين لا يوجد بينهما اختلاف إلا بزيادة حرف واحد.

ثم ساق الله سبحانه وتعالى- دليل آخر على إنكارهم للبعث وهو تكذيبهم الرسول ﷺ وإعراضهم عن دعوته وذلك فى قوله تعالى:

﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى (٣١) وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٥)﴾.

والضمير فى الفعلين (صدق ، صلى) للإنسان والجملة إما أن تكون معطوفة على قوله تعالى: "يسأل أيان يوم القيامة".

والمعنى: بناء على ما علمت من أن سؤالهم سؤال استهزاء واستبعاد استبعد البعث وأنكره فلم يأت بأصل الدين وهو تصديق ما يجب التصديق به ولا بأهم فروعه وهو الصلاة[١].

ويجوز أن يكون العطف بالفاء على قوله: "إلى ربك يومئذ المساق" أى قد فارق الحياة وسيق إلى لقاء ربه خالياً من الاستعداد لذلك اليوم[٢] ولكنه فى قوله: "ولكن كذب وتولى" حرف استدراك أفاد توكيد قوله: فلا صدق بقوله كذب كما أفاد أيضاً أن عدم تصديقهم بالرسول كان عمداً. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [٣].

كما أن فى قوله: (فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى) ما

---

(١) روح المعانى ١٤٨/٢٩ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير ٣٦١/٢٩ بتصرف.

(٣) سورة الأحزاب آية ٢٤.

يسمى لدى علماء البلاغة بالتفويف[١] لأن عدم التصديق يناسبه التكذيب وعدم الصلاة يناسبه التولى.

والتعبير بـ "ثم" فى قوله تعالى: "ثم ذهب إلى أهله يتمطى" قد أفاد استبعاد المشركين للبعث وإنكارهم له.

والدليل على استبعاده وإنكاره ليوم البعث افتخاره واعجابه بنفسه على الرغم من سؤال المستهزئ والمستبعد ليوم القيامة فى قوله: يسأل أيان يوم القيامة؟ وما اعتمد فى ذلك اليوم إلا على ما يوجب دماره وهلاكه وهو ما أشار إليه الله -سبحانه وتعالى- فى قوله: "أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى".

وبالتأمل فى هاتين الآيتين نرى أنهما قد فصلا عن قوله: "فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى" والفصل هنا لقوة ارتباط الآية بعضها ببعض حيث أن قوله: فلا صدق ولا صلى .. الخ قد أثار سؤالاً وهو: ما جزاء المكذبين؟ وكان الجواب جزاؤهم الوعيد والتهديد وذلك ما أشار الله تعالى إليه فى قوله: "أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى".

و"أولى" أفعل تفضيل بمعنى الأحسن والأحرى خبر لمبتدأ محذوف يقدر كما يليق بمقامه والتقدير هنا: النار أولى لك أى أنت أحق بها وأهل لها فأولى.

وتكرار قوله تعالى: "ثم أولى لك فأولى" أفاد التوكيد.

والجملة الثانية "ثم أولى لك فأولى" تذييل للدعاء .." ويجوز

---

(١) التفويف المراد به هو أن يؤتى فى الكلام بمعان متلائمة فى جمل مستوية المقادير أو متقاربتها من بلاغة النظم ٣٩/٤.

أن تكون في موضع الحال بتقدير القول كأنه قيل: ثم ذهب إلى أهله يتمطى مقولاً له أولى لك فأولى ...الخ[١].

وعلى هذين التقديرين يكون المراد بقوله: "أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى تهديد بعد تهديد ووعيد بعد وعيد.

وقد ورد هذا اللفظ مكرراً ليناسب تكرار الآيتين السابقتين في قوله تعالى: "فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى".

والمراد: الويل كل الويل لمن كذب وتولى.

والكاف في قوله: (لك) لخطاب الإنسان المصرح به في هذه السورة الكريمة أكثر من مرة بطريق الإظهار والإضمار ..

وعدل هنا عن طريق الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات[٢] لمواجهة الإنسان بالدعاء لأنه المواجهة أوقع في التوبيخ وكان مقتضى الظاهر أن يقال: أولى له[٣] ولما كان مترتباً على إنكارهم بالبعث والوعيد والتهديد وضح الله -سبحانه وتعالى- السبب في هذا الوعيد والتهديد لقوله تعالى:

﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى (٤٠)﴾.

فعلى هذا يكون قوله: "أيحسب الإنسان أن يترك سدى"

---

(١) روح المعاني ١٤٩/٢٩ بتصرف.

(٢) تفسير الجلالين ٢٢٩/٤ بتصرف.

(٣) التحرير والتنوير ٣٦٤/٢٩.

استئناف لإبطال الحسبان بعد الجزاء على ما فعلوه من تكذيب وإنكار بالبعث والمشار إليه بقوله: "أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه".

والمراد بقوله تعالى: "سدى" أى مهملاً فلا يكلف ولا يجزى، وقيل أن يترك فى قبره فلا يبعث ويقال إبل سدى أى مهملة ترعى حيث شاءت بلا راع وأسديت الشىء أى أهملته وأسديت حاجتى ضيعتها ولم اعتد بها[١].

والمراد: أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ويحسب أن نتركه بدون جزاء على ما ارتكبه من كفر وتكذيب كما تترك الإبل. وفى هذا كناية[٢] عن الجزاء لأن التكليف فى الحياة الدنيا مقصود منه الجزاء فى الآخرة.

والاستفهام فى قوله: "أيحسب أن يترك سدى" إنكارى وكان تكريره بعد قوله تعالى: أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه" لتكرير إنكاره الحشر مع تضمن الكلام الدلالة على وقوعه"[٣].

ومن الأدلة على وقوع يوم القيامة أن الإنسان قد خلق من نطفة يمنيها الرجل ويصبها فى الرحم ثم كان علقة بقدرته كما قال تعالى: "ثم خلقنا النطفة علقة"[٤].

---

(١) روح المعانى ١٤٩/٢٩.

(٢) الكناية فى الاصطلاح: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ كقوله: "فلان طويل النجاد" أى طويل القامة - الايضاح ص٣٣٠، وقيل هى التعبير عن المعنى القبيح باللفظ الحسن وعن الفاحش بالطاهر تحرير التحبير ص١٤٣ لابن أبى الاصبع المصرى - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٣) روح المعانى ١٤٩/٢٩.

(٤) سورة المؤمنون آية ١٤.

ثم جعل هذه العلقة مخلقة فسوى خلق الإنسان وكمله على هذه الصورة التى هو عليها كما قال تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم"(١) وعلى هذا تكون جملة قوله تعالى: "ألم يك نطفة من منى يمنى" جملة مستأنفة الغرض منها بيان قدرته سبحانه وتعالى على إعادة خلق الإنسان.

والمعنى أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ويعد ذلك متعذراً ألم نبدأ خلقه من نطفة ثم تطورت مراحل خلقه أطواراً فماذا يعجزنا إذا أردنا خلقه ثانياً أو إعادته لأن القادر على الخلق قادر على الإعادة وهذا ما أشار الله سبحانه وتعالى إليه قوله: "كما بدأنا أول خلق نعيده"(٢)..

وقوله: وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه"(٣).

والمراد بالنطفة: الماء الصافى ويعبر بها عن ماء الرجل(٤) أى ماء التناسل والمنى: هو الماء الذى يراق من الرجل فى رحم المرأة.

والمراد بقوله يمنى: أى يقدر بالعزة الإلهية مالم يكن منه(٥).

وقد أفاد التعبير بثم فى قوله: "ثم كان علقة" أن هناك تراخياً زمنياً حتى يصير المنى بقدرة الله علقة.

والمراد بالعلقة: الدم الجامد الذى يكون منه الولد(٦) ولقد

---

(١) سورة التين آية ٤.

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٤.

(٣) سورة الروم آية ٧.

(٤) مفردات غريب القرآن ص٤٩٦.

(٥) مفردات غريب القرآن ص٤٧٥.

وردت مراحل خلق الإنسان فى هذه السورة الكريمة موجزة وذلك لتقدم ذكر خلق الإنسان ومراحل تطوره فى سورة المؤمنين فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً﴾.

وبعد تصوير قدرة الله سبحانه وتعالى -على خلق الإنسان أفضى ذلك إلى تقرير وتأكيد قدرة الله -سبحانه وتعالى- على البعث وذلك فى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى﴾.

والاستفهام فى هذه الآية الكريمة استفهام تقريرى لأن هذه السورة قد افتتحت بانكار أن يحسب المشركون استحالة البعث وتسلسل الكلام فى ذلك بإثبات قدرة الله على البعث والتهديد والوعيد لمن يستبعد ذلك اليوم ويستهزء به، وبيان ما يترتب على الإيمان والكفر من النعيم والجحيم، والاستدلال بقدرة الله على البعث لأن القادرعلى البدء قادر على الإعادة. وتعد هذه الآية الكريمة تذييلاً[1] لأنها مؤكدة لمضمون ما تقدم من الاستدلال على البعث والقدرة على ذلك من الله العلى القدير.

هذا، والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل

---

(٦) مفردات غريب القرآن ص٣٤٣.

(١) التذييل: مصدر "ذيل" للمبالغة، وهى لغة جعل الشىء ذيلاً للآخر، واصطلاحاً: أن تؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل فى معنى الأول تحقيقاً لدلالة منطوق الأول أو مفهومه ليكون معه كالدليل ليظهر المعنى عند من لا يفهم ويكمل عند وهمه. البرهان فى علوم القرآن ٦٨/٣.

المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم.

٢) الإيضاح للخطيب القزوينى ط/ دار الجيل – بيروت – لبنان.

٣) البحر المحيط لأبى حيان. مكتبة مطابع النصر الحديثة. الرياض.

٤) البرهان فى علوم القرآن للزركشى. ط/ عيسى الحلبى.

٥) بغية الإيضاح تأليف عبد المتعال الصعيدى مكتبة ومطبعة صبيح.

٦) التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم الجوزيه ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٧) التحبير فى علم التفسير للسيوطى تحقيق د/ فتحية عبد القادر، ط/ المنار ١٤٠٦هـ.

٨) التحرير والتحبير لابن أبى الأصبع المصرى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٩) التحرير والتنوير للإمام طاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر.

١٠) تفسير الجلالين لجلال الدين السيوطى، ط. الحلبى.

١١) حاشية الصاوى على الجلالين للشيخ أحمد الصاوى المالكى، ط: الحلبى.

١٢) علم البديع تأليف أ.د/ عبد الفتاح لاشين، ط١٩٨٤م.

١٣) فتح البيان فى مقاصد القرآن، تأليف صديق حسن خان، ط. مطبعة العاصمة القاهرة.

١٤) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن القيم. مكتبة المتنبى.

١٥) الكشاف للمزمخشرى، ط: الحلبى.

١٦) المثل السائر لابن الأثير دار نهضة مصر للطبع والنشر.

١٧) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وضع محمد فؤاد عبد الباقى ط: دار الحديث.

١٨) المفردات فى غريب القرآن، للراغب الأصفهانى، تحقيق محمد سيد كيلانى، ط: الحلبى الأخيرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١م.

١٩) من أسرار ترتيب القرآن تأليف جلال الدين السيوطى، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط: دار الاعتصام.

٢٠) من بلاغة النظم العربى، أ.د/ عبد العزيز عبد المعطى عرفة، ط: أولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢، دار الطباعة المحمدية.

٢١) نظرات فى البيان أ.د/ محمد عبد الرحمن الكردى، ط: السعادة.

٢٢) لسان العرب لابن منظور، ط: دار المعارف.